مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الحجرات

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الحجرات

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥) ﴾

تناولت سورة الحجرات معالجة العديد من التصرفات التي حدثت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، بما يظهر عظمة سبب نزول القرآن منجماً متفرقاً، أي: مفرقاً بحسب الوقائع والأحداث، ولم ينزل دفعة واحدة، ليضع بذلك منهجاً عملياً في معالجة جميع أمور الإنسان، ومنها الجانب الأخلاقي، إذ أظهرت سورة الحجرات الكريمة مجموعة عظيمة من الآداب والوجبات التي يجب على كل مؤمن أن يتحلى بها مع ربه تبارك وتعالى، ومع رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد افْتُتِحَت هذه السورة العظيمة بتوجيه المؤمنين إلى ما يجب عليهم تجاه شريعة ربهم، وتجاه رسوله صلى الله عليه وسلم من أدب الحذر من أن يتقدم المؤمن بقول أو بفعل مسابقاً به أمراً من شرائع الدين قبل قضاء الله تعالى، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فبدأ واستهل مطلع البيان الكريم بنداء المؤمنين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، وإرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية. قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء عقول الْمُخَاطَبين للانتباه، والآذان للإصغاء إلى ما بعد النداء من كلام وخطاب من رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

وقد تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بخصيصة وصفة الإيمان ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ التي هي من أرقى درجات الوصف، وما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة، ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان، والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا لَهُ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به. ومن الفوائد السلوكية: أنه إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وبهذا اللطف العظيم، وهو ربهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب نداداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

ثم بعد هذه المقدمة من النداء الكريم للمؤمنين يُوجههم تبارك وتعالى إلى وجوب الأدب الذي يحمل التعظيم والعناية والاهتمام لأمره جَلَّ في علاه، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ يا من آمنتم بالله ربكم وبرسوله صلى الله عليه وسلم لا تقضوا شيئاً وأمراً من شرائع دينكم قبل أمر الله تعالى، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم. فلا تخالفوا أمرهما، بأن تقدموا وتقطعوا وتتعجلوا في شيء قبل الحكم فيه، وألا يتقدموا بقول ولا فعل ولا أمر ولا نهي حتى يسمعوا ويعلموا الحكم فيه من ربهم سبحانه وتعالى أو من رسوله صلى الله عليه وسلم. بما يفيد وجوب المتابعة، وعدم المسارعة بالمسابقة. وفي هذا بيان لأهمية الإجلال لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ووجوب التأدب بذلك.

مما يفيد أنه لا يتقدم على النص الكريم من القرآن العظيم ولا السنة النبوية المطهرة بفعل ولا قول مخالف للكتاب والسنة. ويشمل ذلك وجوب التعظيم والتقدير والتوقير والتبجيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا أدب يؤدب الله تعالى به عباده المؤمنين، فيما يعاملون به الرسول صلى الله عليه وسلم، من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام. بأن لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، أي: قبله، بل كونوا تبعاً له، في جميع الأمور[١] بما يفيد النهي والتحذير من تقديم الآراء والعقول على كتاب الله تعالى وما يقضي به رسوله صلى الله عليه وسلم ويأمر وينهى. فكونوا تبعاً للكتاب والسنة.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٢٠)

ثم يأمرهم تبارك وتعالى بما يحقق لهم الالتزام والعمل بما أعلمهم به ونهاهم عنه، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فخافوا الله في أقوالكم وأفعالكم من أن تخالفوا أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بما تسارعون وتسابقون فيه، قولاً أو فعلاً، ثم ينبهم إلى ما يزيد من ضبط أنفسهم في ذلك، فيقول لهم عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ فإن ربكم سميع لأقوالكم، وعليم بنواياكم وأفعالكم. فاجعلوا هذا العلم بأن الله تعالى سميع عليم نَصب أعينكم، ليعينكم ذلك على التقوى. وفي هذا ما يفيد التحذير من مسابقة ومخالفة منهج الله تعالى، ووجوب تقييد الأقوال والأفعال بنصوص الكتاب والسنة، وعدم الابتداع في الدين بقول أو فعل، أو اعتقاد.

ثم يتدرج التوجيه الكريم من العزيز الحكيم إلى المزيد من بيان الآداب والحقوق التي عليهم للرسول صلى الله عليه وسلم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ يتكرر التوجيه والبيان الكريم إلى المؤمنين في مخاطبتهم بياء النداء، وبصفة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ مع قرب العهد في مناداتهم بذلك. مما يفيد أن في تكراره مع قرب العهد به فائدة عظيمة، ومقصد جليل. ففي تكرار النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ لتحقيق المزيد من التنبيه والحرص، مع المبالغة في أهمية ما ناداهم ربهم إليه. ثم تكرار وصفهم بالإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ تأكيداً لإيمانهم، وبياناً لِمَا يتناسب مع إيمانهم عند مخاطبتهم لرسولهم صلى الله عليه وسلم. فإن الذي يناسب هذا الإيمان هو الأدب عند الخطاب.

ثم يلتحق بهذا النداء العظيم التوجيه بما يجب من الأدب عند مخاطبة الرسول أو مناداته صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ جل ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ لا يعلو صوتكم على صوت رسوله ونبيه صلى الله عليه وسلم، بما يفيد خفض الصوت عندما تتخاطبون أمامه، وعند مخاطبتكم ومحادثتكم له صلى الله عليه وسلم، فلا يبلغ صوت أحدكم زيادة عن حد ما يتحقق به بلوغ الصوت له عليه الصلاة والسلام. فيجب أن تكون أصواتكم أدني انخفاضا من صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل خاطبوه بأدب من التعظيم والتكريم، فيكون كلامه عليه الصلاة والسلام هو الأرفع في الظهور لكلامكم، ولا ينغمر صوته عليه الصلاة والسلام بين أصواتكم، فيجب أن يكون هو الأظهر والأبلق والأرفع. مما يجب تمييز رسولكم صلى الله عليه وسلم حتى في صوت المخاطبة له، والحديث معه. مما يدل على وجوب حقه على المؤمنين أجمعين، ووجوب الأدب معه حتى بعد مماته صلى الله عليه وسلم، بتوقير سنته والأدب معها، والأدب معه عند ذكره بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم.

بما يفيد أن هذا الدين هو دين الاحترام والأخلاق عموماً، ودين التعظيم للرسول صلى الله عليه وسلم، وبما يبين مكانته ومنزلته صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه وتعالى، وما يجب أن يُظهره المؤمنون من الحفاوة والتعظيم والإجلال لرسولهم صلى الله عليه وسلم. ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ لا تخاطبوه كما تخاطبون بعضكم بعضا، باعتبار التسوية بينكم، مما يتطلب التبجيل والتفخيم له صلى الله عليه وسلم. قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: لا تخاطبوه: يا محمد. يا أحمد. ولكن يا نبي الله، يا رسول الله، توقيراً له عليه الصلاة والسلام[١] وقال العلماء: يُكره رفع الصوت عند قبره عليه الصلاة والسلام كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام[٢] لأنه معظمٌ حياً وميتاً عليه الصلاة والسلام.

مما يتطلب أن تتكلفوا عدم الجهر، وإظهار وإبراز التوقير والتعظيم له صلى الله عليه وسلم. ومن فوائد قوله تعالى ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ما يفيد المماثلة التي تكون بينكم في الجهر مما اعتدتم عليه فيما بينكم، ومن رفع سائر الرُّتَب والكُلْفَة بينكم. مما يفيد أن تتعاملوا معه بأعظم مما يتعامل الناس به مع الكبراء والعظماء من الناس، لأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى عظمة ومنزلة هذا الأدب مع رسوله صلى الله عليه وسلم وذلك من خلال التنبيه لما قد يتبع ذلك من حبوط العمل، فيقول تبارك وتعالى ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فإن هذا النهي لكم أيها المؤمنون لما قد يترتب عليه من إبطال ثواب أعمالكم إن لم تلتزموا بهذا الأدب مع رسولكم صلى الله عليه وسلم ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وأنتم لا تشعرون بحبوط العمل، بأنه كان بسبب ذلك التصرف الذي قد يتهاون به البعض. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده صلى الله عليه وسلم خشية أن يغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط الله تعالى عمل من أغضبه وهو لا يدري[٣] فانتبهوا من ذلك، وتأدبوا واحتاطوا لأنفسكم بالأدب، وأن تتكلفون القيام به. مما يبين ويفيد أن هذا الدين هو دين الاحترام والأدب والأخلاق عموماً، ودين التعظيم للرسول صلى الله عليه وسلم، وبما يبين ويُظهر مكانته ومنزلته صلى الله عليه وسلم عند ربه سبحانه وتعالى، وما يجب له عند المؤمنين من حق التبجيل والتكريم والمنزلة والمكانة، وما يجب أن يُظهره المؤمنون من الحفاوة والتعظيم والإجلال لرسولهم صلى الله عليه وسلم. وهذا مستمر حال حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم، فهو حق ثابت، قد قرره الله تعالى لرسوله

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٠١-٢٠٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٢٢) والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٠١-٢٠٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٢٢)

عليه الصلاة والسلام، مما يدل على عظيم وشرف منزلته ومكانته صلى الله عليه وسلم عند ربه تبارك وتعالى، وما يتبعه ذلك من أن تكون تلك الآداب كذلك عند المؤمنين جميعاً.

ثم يقابل الله تعالى ذلك الفعل المنهي عنه بما يجب من الحق والأدب، والجزاء والثواب لمن تأدب به مع رسوله صلى الله عليه وسلم. فقال عزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ إن الذين يخفضون أصواتهم بإنقاصها تأدباً مع الرسول صلى الله عليه وسلم عند مخاطبته، وعند التحدث بحضرته. أولئك هم أهل التقوى. وقد بدأ البيان الكريم بحرف ﴿ إِنَّ ﴾ المؤكدة، والتي تعطي دلالة توكيد مع بعدها من البيان، وإظهار قوة العناية والاهتمام من رب العباد. ثم أشار تبارك وتعالى للصحابة الذين امتثلوا بأدب غض الصوت مع الرسول صلى الله عليه وسلم بالاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ ليفيد الإشارة لهم بالتمجيد الذي يقرره ويؤكده ما بعده، الذي هو غض الصوت بإرخائه وخفضه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ أي: متأدبين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخفض وغض الصوت. وهذا الأدب من الصحابة رضي الله عنهم مع الرسول عليه الصلاة والسلام كان هو السائد، بما يبين ويوضح أن النهي كان خاصاً بقوم من الأعراب قد قدموا على النبي عليه الصلاة والسلام، فينادونه من وراء حجراته بما لا يليق بمقامه عليه الصلاة والسلام، كما سيأتي بيانه.

فإن هؤلاء ﴿ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ المتصفون بالتزام مكارم أدب غض الصوت عند رسول صلى الله عليه وسلم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾ أي: أولئك الذين فحص واختبر الله تعالى قلوبهم، فاختصها وأخلصها للتقوى، فتنزهت عما لا يليق بالمؤمن. فإن تأدبهم وإجلالهم للرسول صلى الله عليه وسلم كان بمثابة الفحص والاختبار لتقواهم وورعهم. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: هؤلاء الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين اختبر الله تعالى قلوبهم، بامتحانه إياها، فاصطفاها وأخلصها للتقوى[1] مما يبين أن الاختبار والامتحان من الله تعالى يُساير المؤمن في جميع شؤونه، ليظهر منه مدى تقواه لربه سبحانه تعالى. فأوامر الله تعالى ونواهيه من أجل محصلات مقصودة، ولكن ثوابها عظيم.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٤٣/٢١)

وبالتالي لهم من الله تعالى على التزامهم بتوقير نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم أمران: الأول: ﴿ لَهُم مَّغْفِرَةٌ ﴾ أن الله تعالى يجازيهم بمكافأة محو ذنوبهم السالفة. والثاني: تحصيل الثواب الجزيل ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ وهي الجنة. فهي مكافأة بالعطاء من الثواب الذي اتصف بالعظمة الدالة على منزلته ورفعته وكثرته. مما يبين أن من يُعَظِّم الرسول صلى الله عليه وسلم، ويتبع منهجه فإن له من الله تعالى الجنة. فكما أن هناك ترهيب لمن يعصي فإن هناك ترغيب للطاعة، وثواب عظيم للمطيع. مما يبين عدل الله تعالى، وأنه يربي الأمة بالترغيب والترهيب من أجل مصلحتهم.

ثم ينتقل البيان الكريم من الله تعالى إلى بيان واقعة قد وقعت من البعض مع الرسول صلى الله عليه وسلم، بما لا يليق بمقامه ومنزلته ومكانته العظيمة. فيقول تبارك وتعالى عنهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إن الذين ينادونك أيها النبي من وراء حجراتك، وهي جمع حجرة، والتي تمثل بيته الذي يسكن فيه صلى الله عليه وسلم، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: وهي بيوت نسائه صلى الله عليه وسلم[١] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ إن الذين استخدموا أسلوب النداء للرسول صلى الله عليه وسلم، ليخرج إليهم، ولم يصبروا وينتظروا حتى يخرج من بيته. فإنهم قد أساؤوا بتقديم مطلبهم على مكانته ومنزلته عليه الصلاة والسلام.

قيل إن هذه الآية والتي بعدها نزلت في قوم من الأعراب، جاءوا ينادون رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته: يا محمد. أخرج إلينا[٢] فهم أناس من البادية، وهم الأعراب. فقال بعضهم لبعض: انطلقوا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبياً نكن أسعد الناس به. وإن يكن ملكاً نعش في جناحه. فجاؤوا، فجعلوا ينادون: يا محمد، يا محمد. فنزلت هذه الآية الكريمة[٣] فعالجت الآية الكريمة واقع الأعراب الذين لا يدركون مقامه عليه الصلاة والسلام، مما يبين فائدة نزول القرآن العظيم منجماً متفرقاً، بحسب الوقائع والأحداث، ليعالج بها الواقع، ويصحح بها العقائد والأخلاق، الذي سيمتد أثره إلى ما بعده من الأزمان والأجيال، ويثبت بها تشريع هذا الدين الحنيف خلال بعثته صلى الله عليه وسلم، وما يعقبه خلال مسيرة الحياة الدنيا الباقية للإنسان.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٢/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٤٥/٢١)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧٩/٧)

فأخبر تبارك وتعالى عن سبب قيامهم بهذا الصنيع الذي لا يليق بمقام النبي عليه الصلاة والسلام، فقال تعالى ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فأكثر هؤلاء الأعراب لا يعقلون أدب التعامل مع مقامه صلى الله عليه وسلم. لما هي عليه طباعهم التي ساروا عليها، بما يبين غلبة الجهل عليهم. فإنهم أهل جهل بدين الله تعالى، وبمقام رسوله صلى الله عليه وسلم. فذم الله سبحانه وتعالى صنيعهم، ببيان علة ذلك ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ بما يفيد ليس تقصداً وتهاوناً منهم، ولكن غلب على أكثرهم الجهل. فهم لا يعقلون أدب التعامل، فحصل منهم هذا التصرف الذي لا يليق بمقام ومنزلة النبي صلى الله عليه وسلم. وبما يفيد ليس جميع الأعراب، بل أكثرهم ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وهذا من دقة البيان الكريم في الوصف. مما يبين أثر الجهل على تصرف الإنسان، وعدم مراعاة الجاهل لمقام من يخاطبه، ووجوب التفريق بين المنازل والمقامات. ومنزلته صلى الله عليه وسلم التي هي أرفع المنازل والمقامات بين الناس.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بالشأن والأمر الذي كان ينبغي أن يكونوا عليه من الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال سبحانه وتعالى ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لو أنهم انتظروا، وصبروا ولم يستعجلوا إلى حين خروجك من بيتك إليهم أيها النبي، لكان هذا الأدب خيراً وأفضل لهم من ذلك النداء. ومن فضل الله تعالى وكرمه أنه لم يُرَتِّب على صنيعهم ذلك جزاءً من الإثم، فقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى مُتَّصِف بمغفرة الذنوب، ورحمته بالعباد. بما يفيد أنه لم يترتب على ما كان منهم إثماً لجهلهم الذي وصفهم به تبارك وتعالى. مما يبين عظيم كرم الله تعالى ورحمته بالعباد، وأنه يعذر من جهل. فالحمد لله تعالى على ذلك. ليعطي ذلك المنهج الرباني أهمية الصفح عن الجاهل، وأهمية تعليمه، وأن الجاهل قد تظهر وتبدر منه من الأخلاق ما لا يليق، فإن التعامل معه يكون بحكمة، كما تعامل صلى الله عليه وسلم مع الأعرابي الذي بال في المسجد، فنهى أن يزرموه[1] حتى انتهى من قضاء حاجته، ثم نبهه وعلمه عليه الصلاة والسلام.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا

(1) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٠٢٥)

مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠ ﴾

ثم يتدرج البيان الكريم من الله العزيز العليم الحكيم إلى تعليم الأمة المؤمنة أهمية التثبت والتأكد والتحقق من أي نبأ يصدر من الفساق. فقال عزَّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ بدأ التوجيه الكريم بتكرار النداء للمرة الثالثة للمؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ لإرعاء السمع وشد الأفئدة، وإظهار جلال التنبيه بما اتصفوا به من الإيمان، وأهمية ما ناداهم إليه، ليأمرهم سبحانه وتعالى بهذا النداء العظيم في شأن التثبت وأهميته، فقال تعالى ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ فيا من آمنتم وصدقتم بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم إن جاءكم مَنْ كان حاله الفسق بخبر من الأخبار ذات الشأن، فتبينوا وتأكدوا منه، فلا تبادروه بالتصديق وبالقبول، لما يترتب على ذلك من القرارات غير الصائبة.

والفاسق: هو الخارج عن أصله، إذ أن الأصل هو التزام الشرع. والفاسق خرج عن الشرع، بفعل ما حرم الله تعالى. والنبأ هو: الخبر. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: وفي تنكير الفاسق ﴿فَاسِقُۢ ﴾ وتنكير النبأ ﴿بِنَبَإٖ ﴾ شياع في الفساق والأنباء. كأنه قال: أي: فاسق جاءكم بأي نبأ فتوقفوا فيه، وتطلبوا الأمر، وانكشاف الحقيقة، ولا تعتمدوا قول الفاسق[١] مما يفيد أن من ثبت فسقه فقد انتفى تصديقه، واشترط التثبت من حقيقة أقواله وأخباره. فالأصل فيها الكذب. وبما يفيد أن الأصل في خبر المعروف بصدقه هو التصديق، إلا إن ثبت ما هو ضده. قال القرطبي رحمه الله تعالى: في هذه الآية دليل على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً، لأنه إنما أمر فيها بالتثبت عند نقل خبر الفاسق، ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعاً، لأن الخبر أمانة، والفسق قرينة يبطلها[٢] مما يدل على عناية الإسلام بحقائق الأخبار، وأن المؤمن لا يُعطِي ويُسَلِّم عقله لكل خبر يأتي إليه، بل لا بد من التثبت والنظر إلى المصدر. فإن كان ممن عُرِف بفسقه فيلزم وجوباً التثبت والتأكد. مما يجعل

(١) الزمخشري، الكشاف (٤/٣٥٨)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٠٥)

المؤمن في حرز من أن يصيب أحداً بجهل. حيث قال تعالى عن علة هذا النهي ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ أن يحصل بتصديق الفاسق إصابة من صدقتم فيهم الخبر بشيء يؤذيهم، وهم بُرَآء مما قيل فيهم. مما يبين عناية الإسلام بالأخبار، لما يترتب عليها من الحكم والقرارات تجاه الآخرين. وكذلك التحرز من آثار الأخبار، لِمَا ينجم عنها من القرارات. وفي ذلك حفظ حقوق الآخرين من التعدي عليها لمجرد سماع الأخبار. مما يبين عناية الإسلام بالحقوق والعدل، ومكارم الأخلاق، ونقل الأمة إلى أحسن المراتب في كل شيء. فلا أحسن من نعمة الإسلام.

فأخبر سبحانه وتعالى عن علة التثبت من وجهين: الأول قوله عَزَّ وجل ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ إصابة من صدقتم فيهم الخبر بشيء يؤذيهم، وهم بُرَآء مما قيل فيهم. والوجه الثاني هو: ما يترتب على ما حصل منكم من الندم والأسف ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ فيتحول حالكم إلى الندم والأسف على ما أقدمتم عليه من أمر لم تكن أسبابه حقيقية، بل كذب وبهتان. وأيضاً يحصل منكم الأسف والندم لما يترتب على ذلك من الإثم، لظلمكم غيركم لمجرد السماع. والإسلام يمنع الظلم ويحرمه. مما يبين ويفيد الحذر من الاستعجال في أمر تكون مغبته الندم. مما يبين وجوب اليقين من كل شأن وأمر يمس فيه الغير بظلم. وهذا من عدل منهج الإسلام في التعامل مع الغير، ووجوب التثبت. وبما يعلم المؤمن التريث والتحقق، وألا يكون شأنه المناصرة لكل خبر وكلمة تأتي إليه من هنا وهناك. خاصة في هذا الزمن الذي تسمع فيه ممن لا تعرفه ولا تراه. وهذا يكشف ويفيد قوة منهج الإسلام في حفظ العلاقات، ومنهجه في أخلاق التعامل، وتربيته للأمة بأدق أساليب التعامل مع الأخبار. وألا يُمَكِّن ويُسَلِّم عقله لكل أحد. وأنه مسؤول عن تصرفاته، ومُحَاسَب عليها.

ثم ينبه تبارك وتعالى المؤمنين ويرشدهم إلى أن من إنعامه عليهم أن رسوله صلى الله عليه وسلم يعيش بينهم، ويخالطهم، فيجب عليكم أن تُعَظِّمُوه وتُجِلُّوه، ولا تخالفوه، ولا تطلبوا منه أن يطيعكم، ولا ترغبوا في ذلك، بل أنتم المطيعون له. فقال تبارك وتعالى ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ فبدأ البيان العظيم من الله تبارك وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ الذي يفيد التنبيه والتركيز لما بعده من بيان عظيم ﴿أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيش معكم، ويخالطكم، فانتبهوا لذلك، وأعطوه أهميته من الإجلال وعظيم الإكرام. فهو تنبيه يفيد التعظيم لجناب النبي صلى الله عليه وسلم، ومقامه العظيم.

ثم بعد هذه المقدمة العظيمة ينتقل بهم التوجيه الكريم إلى ما تميز به عليه الصلاة والسلام من الأمر والشأن فيما يَعْلَمُه ويُدْرِكُهُ صلى الله عليه وسلم، وبما يستوجب وجوب أن تراعوا خصوصية نبوته في الآراء التي قد تخالف رأيكم. فقال عَزَّ وجل ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ فلو أنه عليه الصلاة والسلام أطاعكم في كثير مما تحبون من الأحكام، ومما تخبرونه به، وما ترونه من الاتجاهات والآراء التي تحبونها، وتقدمونها على غيرها ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ لوقعتم في المشقة والشدائد، وفي اختلال أموركم حاضراً ومستقبلاً، وأثمتم وهلكتم بذلك العنت. مما يفيد التحذير والانتباه لمغبة متابعته لأقوالكم وآرائكم المختلفة. فإن علة وسبب عدم موافقته صلى الله عليه وسلم لكل ما يأتي إليه من خبر وشأن هو التحرز من أن تقعوا في العنت. فأنتم المستفيدون. فمنهجه وعلمه ورأيه صلى الله عليه وسلم هو وفق خصوصية النبوة والرسالة، وما يُوحي الله تعالى به إليه.

مما يبين أن مقام وعلم رسولكم صلى الله عليه وسلم ليس هو مثلكم، بل مختلف عنكم، لما هو عليه من التثبت، والحكمة، والعلم، والوحي الذي يجعله يسير بكم وفق ما ينفي العنت عنكم. وهذا يعطي في علم الإدارة والسياسة أهمية التحرز، وأهمية عدم التسرع والانجراف وراء كل خبر ورأي، بل لا بد من الحكمة، والتريث، وأخذ الأمور وفق مساقها الصحيح، الذي يبتعد عن العنت والمشاق والآثام التي قد لا يتنبه لها الكثير. والحذر من الرغبة الجامحة في أخذ الأمور من غير تريث وتثبت وتأكد، وتأمل لمغبتها. مما يعلم الأمة كيف يكون حالها في التريث والتثبت، وعدم التسرع الذي يفوت به الخير، ويُوقع في العنت من الشدة والتأسف. ووجوب تقديم منهج الكتاب والسنة على الرأي في كل شأن. فإن تقديم العقل على النقل يُوقع المؤمنين في العنت والمشقة.

ثم يلفت تبارك وتعالى انتباه المؤمنين إلى ما امتن سبحانه وتعالى عليهم به من محبتهم للإيمان، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ فإن من فضائل ربكم عليكم أن جعلكم محبين للإيمان. فتذكروا نعمة الله تعالى عليكم بأن جعلكم محبين للإيمان، فجعل هذا الدين أحب إليكم من كل شيء، وما يترتب على هذا الحب من الخير العظيم، بل وإن من زيادة فضله عَزَّ وجل عليكم أن ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وحَسَّن هذا الإيمان وهذا الدين في قلوبكم، حتى شعرتم بأنكم في أحسن شيء أنتم عليه من الدين. مما يبين أن الله تعالى هو الذي يعطي ويمنح المؤمن المزيد من محبة الدين، ورؤية محاسن أحكامه وشرعه، ومحبتها في القلوب. وهي منحة عظيمة بأن يُبعدهم عن الشك والريبة، فيعيش المؤمن في طمأنينة كاملة من دينه الذي هو عليه. وهذا يستدعي من كل أحد أن يجاهد نفسه على الطاعة حتى يكرمه الله تعالى بمحبة الإيمان، والشعور بحسنه في القلب. فإن للإيمان محبة وزينة في قلوب أهل الإيمان. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا.

ومن مزيد امتنان الله تعالى على المؤمنين أن كره في نفوسهم أضداد الإيمان، فقال تعالى ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ وجعلكم تكرهون ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ فقبح الكفر في قلوبكم وعقولكم، فأدركتم كمال

قبحه، وازدراءكم له. والكفر هو نقيض الإيمان، وما يشتمل عليه من إنكار ما أمر الله تعالى به من الإيمان. وكذلك من إنعامه عَزَّ وجل أن جعلكم تكرهون ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾ وهو كل ما يُخرج عن طاعة الله تعالى. والفسوق هو ما يحصل به الخروج عن الحق إلى ارتكاب الذنوب والكبائر، فأصبحتم تكرهون أن تأتوا بشيء من مفردات الفسوق. وكذلك جعلكم تكرهون ﴿وَٱلْعِصْيَانَ﴾ أي: المخالفة، مخالفة منهج ربكم. وهو سلوك وارتكاب ما نهى الله تعالى عنه، وتضييع ما أمر الله تعالى به، والعدول عنه إلى غيره. مما يفيد تقديمهم للشرع على العقل والهوى. فأصبحوا منقادين لدين الله تعالى، محبة له، وكرها لأضداده.

وفي قوله تعالى ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ﴾ ما يدل ويفيد أنه عَزَّ وجل هو المعين، وهو الذي يُقوي قلب العبد على تقبيح القبيح وكره فعله. فَقَبَّحَ الكفر في قلوبكم وعقولكم، فأدركتم كمال قبحه، وازدراءكم له. وفي نفس الوقت هو المعين على الطاعة والاستقامة ومحبتها، كما قال تعالى قبل ذلك ﴿ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ فتذكروا نعمة الله تعالى عليكم بأن جعلكم محبين للإيمان، وكارهين للكفر والفسوق والعصيان، فجعل هذا الدين أحب إليكم من كل شيء، ثم ما يترتب على هذا الحب من الخير العظيم. مما يبين مقدار فقر العبد لربه في حب الخير وعمله، وكره الشر واجتنابه. فالطاعة تقود وتجر إلى رضى الله تعالى. وكثرة الدعاء والافتقار إلى الله تعالى تقود العبد إلى الخير بفضله ورحمته عَزَّ وجل وتوفيقه وهدايته للعبد.

ثم يشيد جَلَّ جلاله بما هم عليه من الإيمان وكرههم للكفر والعصيان، بما يُثبت لهم بذلك أنهم هم المهتدون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: أهل الرشاد، بالاستقامة والاهتداء، فهم المهتدون الذين يسيرون على الاستقامة في الدين، مع قوة التمسك به، وعدم التفريط في شيء منه، والرشد هو اختيار الحق ومسالكه وكل ما يؤدي إلى تحقيقه، والبعد عن الباطل وكل ما يسير إليه، بما يفيد سلوك مسلك الاستقامة، الذي هو طريق الحق الذي ينتفي معه الفسوق والعصيان.

وبعد بيان تحبيب الإيمان لهم، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان في قلوبهم، فأصبحوا من أهل الرشاد، يبين سبحانه وتعالى امتنانه عليهم بذلك، فقال عَزَّ وجل ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: أن ما تحقق لكم من نعمة الإيمان وكره الكفر والفسوق والعصيان هو تفضل من الله تعالى عليكم، ونعمة منحها لكم. مما يستلزم شكرها، والعمل بمزيد الطاعة والإخلاص له جَلَّ في علاه. مما يعلم المؤمن أن يستشعر فضل ربه عليه، إذ هداه ووفقه، وربط على قلبه بما هو عليه من الحق، وحبب إليه مسلك الطاعة والامتثال لربه تبارك وتعالى، وألا يتعاظم في نفسه، وينسب الفضل لنفسه. بل يتواضع ويدرك أن الله تعالى هو الذي وفقه وهداه.

ثم يخبر عَزَّ وجل بكمال علمه وحكمته ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ فإن الله تعالى عليم بكم وبأحوالكم، وما أنتم عليه، وما تحتاجونه لقوتكم وتقويتكم به. وكذلك سبحانه وتعالى ﴿ حَكِيمٌ ﴾ بوضعه الأمور موضعها، وبما يناسب الحال، ويعالج الشأن بأحسن الأحكام والتشريع. وأن ربكم موصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأنكم وشأن خلقه، مع كمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. كما أن الحكيم يعطي دلالة الإحكام والإتقان في التصرف والتقدير، بأنه سبحانه وتعالى حكيم في أمره، وتدبيره، إذ يضع الشيء موضعه الصحيح، وهو الحكيم في تدبير ملكه، وتصريف خلقه.

ومن عظيم حكمته تبارك وتعالى هو ضبط التعامل بين المؤمنين حال حصول التنازع في أمر من الأمور بينهم، وذلك بضبط معالجتها معالجة استباقية قبل حصولها فيما لو حصل ذلك الأمر من التنازع. فقال تعالى ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ فإن حصل اختلاف بين فريقين من المؤمنين، وأدى ذلك الاختلاف إلى نشوب الاقتتال وحصوله بينهم، فاعمدوا مباشرة إلى الإصلاح بينهما. والطائفة تشمل الفرد وتشمل ما زاد عن ذلك. قال القرطبي رحمه الله تعالى: والطائفتان تتناول الرجل الواحد والجمع والإثنين، فهو مما حُمل على المعنى دون اللفظ[1] ولم ينف تبارك وتعالى الإيمان عنهم، بل سماهما بما هم عليه من الإيمان ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مما يفيد ثبوت الإيمان للمؤمن، وإن حصل منهم ما يخالف الأولى، وما يجب في الدين من التواد والتراحم.

وورد مطلع البيان الكريم بصيغة تضعيف حصوله ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ فإن حصل ذلك. فأفاد السياق الكريم إلى أن الأصل هو عدم حصوله. ولكن إن حصل ذلك. بما يفيد المعالجة الاستباقية لَمَّا قد يَرِد من الاختلاف الذي يؤدي إلى الاقتتال. فأوجد لهم الحل المناسب، بالأسلوب والترتيب المناسب. فحرف ﴿ وَإِن ﴾ هو حرف شرط، بما يفيد: فإن ابتدأ أحد الفريقين قتاله الفريق الآخر فإن المعالجة تكون بحلول متعاقبة، يعقب أحدهما الآخر. وهي:

فالمعالجة الأولى: تكون بالإصلاح ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ فيجب أن تُصلحوا بينهما، فالأمر في قوله عَزَّ وجل ﴿ فَأَصْلِحُوا۟ ﴾ يقتضي الوجوب على ولي أمر المؤمنين الإصلاح. فيجب عليكم أيها المؤمنون

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٨/١٦)

الإصلاح بين الفريقين المتخاصمين. ومن براعة البيان أنه أمر بالإصلاح دون تفنيد لمسائل الإصلاح. وذلك لتنوع محاور الخلاف، وتعدد سُبُل الإصلاح. وبالتالي يستجمع الأمر جميع طرق الإصلاح المشروعة التي تجمع الفريقين على التراضي بينهما. مما يعطي المُصلح مساحة واسعة من الاجتهاد في الاختيارات المتاحة لعملية الإصلاح، وفق شريعة الله تعالى. ففي ذلك تفويض للمصلح بالتعمق في البحث والاختيار من سُبُل الإصلاح ما يُنهي به النزاع، ويحقق التراضي بين الفريقين. وبما يعطي منهجية وافية في عملية التفويض، وصلاحيات المفوض له في الإصلاح. بل ويقدم النص الحكيم بهذا الأسلوب نموذجاً في تحرير القواعد واللوائح في التفويض والمعالجة. وأن يكون مرجع الصلح كما ذكر أهل التفسير: بالدعاء إلى حكم الله تعالى، والرضا بما فيه لهما وعليهما[١] فمرجع الصلح إلى ما يقضي به كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى المرحلة الثانية من المعالجة، وهي في حال عدم انتفاع أحد الفريقين بالمصالحة وبنودها، والاستمرار في الاقتتال. فقال تعالى ﴿ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾ والبغي: هو التعدي من غير حق، ورفض الصلح العادل، الموافق للصواب من الحق، الذي لا إجحاف فيه. فإن أحداً من الفريقين لم يرض بالصلح العادل، وأصر على الاستمرار في القتال فيكون الحل هو ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ فيجب على المسلمين من خلال إمامهم مقاتلة هذا الفريق أو الطائفة الرافضة للصلح حتى ترجع عن غيها إلى كتاب ربها سبحانه وتعالى، وهو بما حكم به أهل الإصلاح من المؤمنين. فيلزم المؤمنين القيام بما يكفها عن البغي، وإعادتها إلى الحق. قال القرطبي رحمه الله تعالى: وهو فرض على الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين[٢] ويستمر هذا القتال ﴿ حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ حتى ترجع إلى أمر الله تعالى وحكمه. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: أي: إلى طاعته في الصلح الذي أمر به[٣] سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان أن سمَّى الله تعالى هذا الصلح وبنوده ﴿ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ لأن المصلحين إنما التزموا الصلح العدل الذي يوافق كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. كما أوضحت دلالة ﴿ حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ تحقيق الغاية من قتالها، وهي أن ترجع إلى حكم الله تعالى، الذي حكم به أهل الصلح من المؤمنين. مما يعني أن بنود الصلح التي يضعها المصلحون من المسلمين يجب أن تكون وفق منهج الله تعالى،

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨١/٧)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٩/١٦)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٨١/٧)

لأنه هو المحقق للعدل. وفي هذا ضبط لبنود الصلح بين الطائفتين. وهذا من عمق دقائق السياق في كتاب الله سبحانه وتعالى.

ثم المرحلة الثالثة: وهي إن فاءت إلى أمر الله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ فحال أن هذه الطائفة رجعت عن تمردها على الصلح، وقبلت به فإنه يجب أن تكون عملية الإصلاح وبنودها وفق العدل، فقال تعالى ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾ فيجب عليكم أيها المؤمنون أن تعقدوا الصلح بين الطائفتين المتقاتلتين ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ الذي ينتفي منه الظلم والجور. ثم يؤكد ذلك تبارك وتعالى على المؤمنين بأن يلزموا العدل في كل شؤونهم، ومحفزاً على طلب ذلك وتحريه بقوله جَلَّ جلاله ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ وأعدلوا وتحلوا بالعدل المقسط في جميع أحكامكم، ثم عزز عندهم تحري ذلك العدل ببيان محبته جَلَّ في علاه للمقسطين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ فإن ربكم يحب المتصفين بصفة القسط الذي هو العدل في الحكم. فإن ذلك معزز ودافع لهم بأن يتحروا تحقيق ذلك، لأن ربكم يحب المتصفين بصفة القسط في الحكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ فإن ربكم يحب المتصفين بصفة العدل في أحكامهم. وهم الذين لا يميلون لأحد عن أحد، بل لا يجرمنهم حتى شنآن قوم من أن يعدلوا معهم بالقسط.

وقد ذكر القرطبي رحمه الله تعالى عند تفسيره لهذه الآية الكريمة قضايا فقهية مهمة فيما يتعلق بمن يخرج على الحاكم. ومما ذكر رحمه الله تعالى: إذا خرجت على الإمام العادل خارجة باغية، ولا حجة لها، قاتلهم الإمام بالمسلمين كافة، أو من فيه كفاية. ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة، والدخول في الجماعة، فإن أبوا من الرجوع والصلح قُوتلوا[١] وذكر محاذير في ذلك، بحكم إيمانهم.

ومن دقائق البيان أنه لم يتم الأمر في الآية الكريمة بالعدل في الصلح الوارد في مطلع الآية ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ فاقتصر التوجيه الكريم على الصلح بينهما فقط. بينما ذكر الله تعالى لزوم العدل حين أذعنت الطائفة الأخرى التي بغت للصلح ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾ وذلك بعد أن قاتلها المؤمنون، فاستجابت وأذعنت نتيجة لما أصابها. وذلك أن العدل أصل من أصول الدين، فهو كائن في الأولى كما هو كائن في الثانية. وإظهاره في الثانية من شأن التأكيد الذي يتناسب مع انكسار الطائفة الثانية، وإذعانها مُرغمة لا باختيارها. فالتنبيه على ألا يكون عدم قبولها الصلح الأول مدعاة لاستغلال ضعفها،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢١٠)

وإذعانها. وكذلك فيه إظهار محبته سبحانه وتعالى للمقسطين، بما يدفعهم لكمال العدل. وكذلك فيه زيادة تنويه وتنبيه للفئة التي تم إرغامها على قبول الصلح، حين تم قتالها حتى انكسرت له. فإنه ينفي أن يكون تمردها سبب في أن يلحقها شيء من الحيف والظلم والجور. فيؤكد عَزَّ وجل أنه مع ما كان منها من البغي إلا أنه يجب العدل بالقسط التام معها. ليحفظ لها حقها، حتى تعود آثار المصالحة بثمارها على الطائفتين، وتزول الإحن والمحن بينهم. وهذا من دقائق الحكم والعدل، مع دقة تحرير البيان الكريم من الرحمن الرحيم. وبما يُعَلِّم به المؤمنين كيف يكونون من العدل في جميع الأحوال، وأن لا يجعلوا للحيف مكاناً في أحكامهم. بل ويتعلمون بذلك منهج تحرير الأنظمة.

ثم يقرر سبحانه وتعالى مضمون وجوب الإصلاح بين المتخاصمين من المؤمنين بقاعدة عظيمة، وهي قوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ إنما يجمع المؤمنين أصل واحد، وهو الإيمان الذي اقتضى المؤاخاة بينهم. فإن ذلك يُشَكِّل قاعدة قد عقدها الله تعالى بعقد بين المؤمنين، بأن علاقتهم فيما بينهم قائمة على الأخوة، بسبب الإيمان ووحدة الدين، وبالتالي ليست هذه الأخوة مبنية على المصالح الذاتية. وبالتالي فقد وسعت بذلك مساحة أخوة المؤمنين فيما بينهم أنحاء الدنيا، زماناً ومكاناً. فوجب التراحم والتعاطف والتناصر، والتصالح، ومدافعة الشر عن بعضهم البعض. فأينما وُجِدَ المؤمن من حيث الزمان والمكان فهو أخ لغيره من المؤمنين، وسواء ممن يعرفه أو ممن لا يعرفه. وبالتالي وجب نصرته على الحق، والقيام بحقوقه التي تترتب على حقوق الإيمان، كما قال صلى الله عليه وسلم (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشَبَّكَ أصابعه)[١] وقال صلى الله عليه وسلم (المسلم أخو المسلم. لا يظلمه، ولا يُسلمُهُ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته)[٢] فالعلاقة بين المؤمنين هي علاقة تعاضد وتكاتف وتناصر بالحق.

وقد استهل البيان الكريم مطلع تقرير الأخوة بصيغة القصر ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ فأفادت أداة القصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ حصر حال المؤمنين في الأخوة الإيمانية، وذلك للمبالغة في إظهار هذا الحكم العظيم، وإظهار القاسم المشترك الذي هو الإيمان. إذ أن أخوة الدين لا تنقطع باختلاف النسب، بينما تنقطع أخوة النسب باختلاف الدين. فنوه تبارك وتعالى عن جميع المؤمنين بأنهم أخوة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ فجميعهم أخوة في الدين. وفي الحديث قوله صلى الله عليه وسلم (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)[٣] فإعانة المؤمن جالبة لعون الله تعالى ومعونته.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٤٨١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٩٥١)

(٣) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٢٦٩٩)

ثم أكد تبارك وتعالى للمرة الثالثة وجوب الإصلاح بين المؤمنين. وقد ساق الله تعالى البيان الكريم بأسلوب المفرد ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ ﴾ فيجب أن تُصلحوا بينهما. فالأمر يقتضي الوجوب. فأكد بذلك أن الإصلاح واجب حتى في أقل درجاته من حيث عدد المتخاصمين ﴿ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ ﴾ فأصلحوا بين الأخوين وجوباً عليكم، فإنه أمر واجب عليكم. وبما يفيد أنه أوجب فيما زاد عن ذلك، لما يترتب على أثر الكثرة.

ومن دقائق البيان العظيم أن الله تعالى سماهم ﴿ أَخَوَيۡكُمۡ ﴾ ولم ينف عنهم الأخوة بسبب بغيهم على بعض، وكذلك لم ينف عنهم الإيمان، فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ ﴾ فأثبت لهم الإيمان مع الأخوة في الدين، والتي تستوجب الإصلاح بين المؤمنين على اعتبار الأخوة التي بينهم، وأن لا يجرحوا هذه الأخوة بما يفسدها ويعطلها. وبما يفيد أن الأصل بين المؤمنين هي الأخوة، وبالتالي يجب إقامة وأداء كل ما يترتب على هذه الأخوة من الحقوق، التي أوضحها كذلك قوله صلى الله عليه وسلم (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرَّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة)[١] مما يبين قوة العلاقة ومتانتها بين المؤمنين التي فرضها الله تعالى بينهم، وأوضحها وبينها وطبقها رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يأمر اللهُ سبحانه وتعالى الجميع بتقواه عَزَّ وجل، فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ فخافوا ربكم، باتقاء غضبه عليكم. والتقوى هي: أن يُطاع فلا يُعص، ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى[٢] مما يؤكد أهمية التقوى، والحرص عليها إلى درجة المبالغة في تحقيقها، وذلك بالخوف من التقصير في حق الله تعالى، والخوف من عاقبة إتيان الذنوب، وهذا مما يدفع العبد إلى الطاعة والحرص على ذكر لله تعالى وشكره عَزَّ وجل. ومن ذلك أداء حقوق المؤمنين فيما بينهم. والعمل على بقاء الأخوة بينهم. فالتقوى تتطلب الحذر والخوف من المخالفة، والحرص على الطاعة الخالصة لله تعالى. فبالعمل بما أمر الله تعالى يتحقق رجاء الفلاح والفوز بما عند الله تعالى.

ثم علل سبحانه وتعالى سبب أمره بتقواه فقال عَزَّ وجل ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ فلعلكم بمقتضى تقواكم أن يرحمكم ربكم، فيصفح عنكم، ويغفر لكم، ويكفر عنكم سيئاتكم. وكذلك لتستقيم أموركم ونهجكم على الصلاح، لِمَا تحققه التقوى في نفوس المتقين بفضله تبارك وتعالى من الخير والتراحم والاستقامة، والبعد عن أسباب

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٢٤٤٢) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (٢٥٨٠)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥/٦٣٧)

البغي. وبمعنى: رجاء أن يتحقق لكم من الله تعالى الرحمة التي تُنقِذُكم من عذابه سبحانه وتعالى، بعفوه عنكم، فيمدكم ويكرمكم بفضله وإحسانه في الدنيا والآخرة.

فرتب عَزَّ وجل على التقوى ما يأتي بسببها من أداء ما أراد الله تعالى من الفلاح، كما رَتَّب عليها الفوز بتحقق الرحمة، وذلك بالنجاة من العذاب، والعافية من البلاء، والفوز بما عنده من الأجر والمثوبة العظيمة. ويفيد هذا في التطبيقات العملية أهمية المكافأة التشجيعية، التي تشجع المدعو والطالب والعامل على فعل الخير وحُسن الأداء، وإلى اجتناب الشر وفعله، وهذا يَعُم جميع مجالات الحياة المختلفة. فإذا كان الله تعالى يكافئ عباده المطيعين وهم عبيده، فإن للمكافأة بين المتماثلين أثر بليغ في النفوس، وفي الأداء.

كما ورد التعليل بصيغة ﴿ لَعَلَّكُمْ ﴾ التي تفيد إيقاع الرجاء منهم لرحمة ربهم سبحانه وتعالى. فالمتوقع منكم تجاه هذا الذي بيناه لكم أن تتقو ربكم، فتعملوا بما بينه لكم. فهي تفيد الترجي للعبد، والحث لهم نحو تمني أن تتحقق الرحمة لهم من ربهم تبارك وتعالى. فهو أسلوب بديع من الله تعالى في تربية الإنسان، وتوجيهه لِمَا يجب عليه، من خلال استثارة عقله ومشاعره نحو تَطَلُّبه وترجيه لرحمة ربه عَزَّ وجل، ونحو القيام بما يجب عليه لتحقيق ذلك. فإن في جملة ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ اطماع لهم في نيل رحاب رحمة الله تعالى، وتشويق وتحفيز لهم إليها.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

وتستمر التوجيهات الربانية في تأسيس وتثبيت ما سبق من الأخوة الإيمانية، وبما يتبعها من فروع التعامل الكريم بين المؤمنين. فقال سبحانه وتعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ ويتكرر نداء المؤمنين للمرة الرابعة

في هذه السورة بحقيقة الإيمان التي ينعتهم ربهم بها، إكراماً وتزكية، وبياناً لقدرها ومنزلتها. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فيبدأهم بالنداء ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ﴾ لشد الانتباه، وإرعاء السمع، ثم يسميهم تبارك وتعالى بأجل التسمية وأكرمها ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ يا من آمنتم وصدقتم بالله ربكم، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبجميع ما جاءكم من الحق ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ فبدأ البيان بالنهي عن السخرية، وهي الاستهزاء والتنقص من الغير. فلا يسخر قوم مؤمنون من قوم مؤمنين. ويشمل ذلك كل قول أو فعل فيه سخرية من الغير، مما يفيد التحريم لذلك الْخُلُق البذيء السيء. وأن الله تعالى يحرمه ويمقته من أن يكون ذلك بين القوم المؤمنين أو بين أفرادهم. قال الطبري رحمه الله تعالى: والصواب من القول في ذلك أن يُقال: إن الله تعالى عمم بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض، جميع معاني السخرية، فلا يحل لمؤمن أن يسخر من مؤمن، لا لفقره، ولا لذنب ارتكبه، ولا لغير ذلك[1] فهو تعميم شامل لعموم أنواع ودرجات السخرية.

وورد التنكير للقوم ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ لتفيد العموم، وعدم تخصيص النهي فقط على من نزلت فيهم الآية الكريمة، لتعطي دلالة عموم اللفظ، وأنه ليس مخصوص بخصوص السبب الذي نزلت الآية الكريمة لمعالجته. فهو أدب عام واجب على كل مسلم. وهذا من كمال وجمال آداب الإسلام، بمنعه وتحريمه لدواعي إثارة العداوة بين المؤمنين بالتنقص من بعضهم البعض. كما أن في هذا غزارة بيانية لعمق دلالة السياق وبلاغة نظمه وتحريره، الذي يدل على كمال إعجازه.

وتبين دلالة السخرية من الساخر استحسانه وإعجابه بنفسه، وأنه يرى الخيرية والاستعلاء على من سخر منه. وبالتالي هو يزكي ذاته، ويرفعها عما سخر منه، ويحتقر غيره فيما يراه، مع جهله بما خفي عليه من نفسه وذاته من النقص، ومن غيره فيما عندهم من المحاسن والفضائل التي لا يعلمها، والتي ربما ترتفع وترفعهم عليه. وبالتالي فإن الساخر متلبس بالعجب الذي لا يرى به صاحبه العيب والنقص في نفسه. فأصبحت المقاييس التي لديه فاقدة للصواب وللحق والحقيقة. وهي من كبائر مساوئ الأخلاق.

ثم علل تبارك وتعالى ذلك النهي، بقوله عَزَّ وجل ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ فعسى أن يكون المسخور والمهزوء به ومنه أفضل وأخير وأحسن من الساخر والهازئ. وفي هذا التعليل بيان لجهل الإنسان فرداً أو جماعة بحقائق الإيمان والأعمال الصالحة عند من ينتقص منهم. فقد يكون الواحد قليل القدر في عين غيره، وهو كبير المنزلة عند ربه سبحانه وتعالى. فيصحح منهج الله تعالى أفكار وعقول وأحكام الآخرين عن بعضهم البعض. وبما ينعكس على كل أحد من المؤمنين بأن ينظر لغيره بما يخفى عليه منه، وليس بما يظهر له

[1] الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٣٦٦/٢١)

منه. فيذر ويترك عباد الله تعالى من التنقص والتجريح. فقد يخطئ أو يقصر المؤمن في أمر، ولكنه في غيره أكمل ممن تنقص منه. فإن علم البواطن والظواهر لله تعالى.

ثم يعطف سبحانه وتعالى نهي النساء على هذا النهي للقوم. فقال تبارك وتعالى ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ وكذلك يا معشر النساء لا تسخرن من بعضكن البعض ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ فعسى أن يكون المسخور والمهزوء بهن أفضل وأخير وأحسن من الساخرات والهازئات. وفي تخصيص النساء بالرغم من دخولهن في عموم القوم، وذلك لإظهار الاهتمام بهذا الشأن عندهن. وأنهن معنيات بهذا الخلق كغيرهم من الرجال. مما يبين المبالغة في قوة النهي بقوة التعيين والتخصيص. وقد ورد عن الجوهري رحمه الله تعالى: أن القوم هم: الرجال دون النساء، لا واحد له من لفظه. وقال: ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع، لأن قوم كل نبي رجال ونساء[١] مما يفيد أن تعيين وتخصيص النساء في التوجيه الكريم هو للتنصيص على إظهار أنهن معنيات كذلك بهذا التوجيه الكريم. ولتقوية درجة الاهتمام، والتحرز من إخراجهن. مما يدل على قوة ضبط البيان من الله تعالى، بما يُظهر قوة إعجازه في تحقيق دقة مراده عَزَّ وجل.

وفي هذا توجيه وإصلاح لبنية المجتمع وتماسكه، وتصحيح للمفاهيم الخاطئة، والتصرفات القاصرة، والارتقاء بالمجتمع المؤمن إلى مكارم الأخلاق، التي تمنع من التباغض، وتُحث وتربي النفوس على التواضع، والتواد. مما يبين عظيم منهج الله تعالى القويم في تربية أتباعه بمحاسن الأخلاق التي ترتقي بهم بين الناس أجمعين. كما يدل هذا على قوة الترابط بين الإيمان وبين معززات مكارم الأخلاق. فكلما قوي إيمان الإنسان ونقص جهله ارتفعت مكارم أخلاقه مع إخوانه المؤمنين.

ثم ينتقل التوجيه الكريم من الله سبحانه وتعالى إلى النهي عن خُلُق ذميم آخر. فيقول تبارك وتعالى ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ واللمز هو: الطعن بإلصاق العيب والتنقص بالغير. أي: ذكر عيوب الآخرين بالقول. بينما الهمز هو: ذكر عيوب الآخرين بالفعل، كالإشارة باليد، أو باللسان، أو بأي جارحة. قال ابن كثير رحمه الله تعالى وغيره: الهمز بالفعل، وللمز بالقول[٢] فلا يعيب بعضكم على بعض، وهو نهي تحريم، إذ ورد بصيغة الأمر. ومن دقائق البيان أن نسب اللمز للنفس ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فمع أن اللمز يقع من طرف على طرف آخر، إلا أن البيان الكريم أورده على أساس: أن من عاب أخيه المسلم فكأنما عاب نفسه. فسمى الأخ

(١) ابن منظور، لسان العرب (٥٠٥/١٢)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٧/٤)

المؤمن نفساً لأخيه، لأن المؤمنين كنفس واحدة. وهذا من براعة البيان في غرس المعاني بأقوى الدلالات المعبرة عن الحقيقة التي يجب أن يستوعبها المؤمن ويعمل بمقتضاها.

ثم ينتقل التوجيه الكريم من الله سبحانه وتعالى إلى النهي عن خُلُق ذميم آخر. فيقول تبارك وتعالى ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ أي: ولا يصف بعضكم بعضا بالألقاب التي يستاء منها غيره، ويكرهها. وهي ألقاب السوء، فَيَدْعُوا غيره بغير اسمه المعروف، إلى ما اخترعه غيره عليه من الألقاب المشينة التي يمتعض منها. كقولهم: الأحمق، أو الجاهل، أو البخيل، أو السكير، أو ما كان منه سابقاً، فيعيره بكفره السابق، أو بخلق سيء كان منه. وبنحو ذلك من الألقاب المشينة. مما يبين ويفيد أن منهج الإسلام هو منهج الرقي الأخلاقي، الذي يربي اتباعه على طيب التخاطب، والتحادث، والمناداة التي تغرس التواد، وتجذبهم نحو التآلف والتقارب. كما يفيد ذلك أن من أقوى وسائل التواد هو جميل الخطاب، وجميل النداء. فإن الله سبحانه وتعالى مع أنه رب العباد، ينادي المسلمين بصفة ولقب الإيمان ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهم عبيده، والفقراء إليه، وهو الغني عنهم. فما أحوج العباد أن يتخاطبوا فيما بينهم بأحسن الألقاب وأكرمها.

ثم يعلل سبحانه النهي عما سبق من الخلق الذميم ببيان تجريم ذلك الخلق الذميم، وتجريم فعله، فيقول عَزَّ وجل ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فبئس ﴿ٱلِٱسۡمُ﴾ وهو ما تم ذكره من مفردات السخرية والطعن واللمز، والتنابز بالألقاب. بعد أن حصل منكم الإيمان. بما يفيد أن الإيمان مانع من ذلك السلوك الذميم. ومن دقائق البيان حذف المخصوص بالذم، ليستوعب ويعم جميع مفردات ما تم ذكره من السخرية، واللمز، والطعن والتنابز بالألقاب. فبئس استبدالكم الإيمان بالخروج عنه إلى الفسق. مما يدل على تعظيم خطر هذا الخلق الذميم. فإنه لا يناسب الإيمان، والمؤمن. فبئس الفعل فعلكم بأن تذكروا غيركم من المؤمنين بما يكرهون من الأسماء، والصفات، والعيوب. وبئس الذكر أن يذكر المؤمن غيره من المؤمنين بالكلام الفاسق، بعد أن وُصِف بالإيمان، فيخرجه من الإيمان إلى الباطل. فلا يصف المؤمن أخاه المؤمن بصفة قبيحة أياً كانت، وأياً كان سببها. فإنها من أعمال الفسوق ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ فجعل الله تعالى من يقوم بذلك الخلق الذميم بمثابة من خرج عن الإيمان بعد أن كان فيه. وكذلك خروج هذا الخلق عن مسلك الإيمان إلى الفسوق. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ومعنى البُعْديَّة في قوله تعالى ﴿بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ بعد الاتصاف بالإيمان، أي: أن الإيمان لا يناسبه الفسوق. لأن المعاصي من شأن أهل الشرك الذين لا يزعهم عن الفسوق وازع[1] وبما يفيد

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٤٩٤/١٠)

أن ما تم نهي المؤمنين عنه هو من أعمال الفسوق، والفسق يفيد الخروج عن الحق إلى الباطل. وبما يفيد أن فاعله معاقب على جميع مفردات ما يقوم به مع غيره من المؤمنين بذلك الخلق الذميم.

وبعد التشنيع على تلك الأخلاق البذيئة السيئة، يفتح الله تعالى برحمته باب التوبة لعباده المؤمنين، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فإن الذي لا يتوب من ذلك الخلق الذميم السيء، ويعدل عنه ويتركه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فأولئك قد وضعوا أنفسهم في موضع الظالمين الذين استوجبوا الاقتصاص منهم بما يستحقون من العذاب. فقد قاموا بما نهاهم الله تعالى عنه من الاستخفاف والاحتقار لإخوانهم المؤمنين، فظلموا بذلك غيرهم، فأصبحوا ظالمين. وكذلك أصروا على ما هم عليه ولم يتوبوا إلى الله تعالى مما كان منهم. فأصبحوا ظالمين لأنفسهم، فاجتمع فيهم الظلم من كل وجه.

وقد أظهر قوله تعالى ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ﴾ وجوب التوبة من ذلك، وأن التوبة تصحح مسار التائب، فيغفر الله تعالى له ما كان منه. والتوبة تستجمع الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزيمة على ألا يعود إليه. وفي هذا معالجة ربانية لتلك المساوئ الْخُلُقية، وبما يفيد عناية هذا الدين الكريم، بما يجمع كلمة المؤمنين، وينهى عما يفرقهم من الأسباب الذميمة، والخصال السقيمة. كما افاد ذلك قوة منهج الله تعالى في المعالجة، بأن أورد تلك الخصال بأسلوب الترغيب في البعد عنها، مع البيان العظيم لقوة جُرمِها، ثم بيان عاقبة من لم يتب منها، بأن جمعهم مع الظالمين، الذين استوجبوا عقوبة ما يُعاقَب به الظالم.

وتستمر التوجيهات الربانية في تأسيس وتثبيت ما سبق من الأخوة الإيمانية، بما يتبعها من فروع التعامل بين المؤمنين. فقال سبحانه وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ ويتكرر النداء للمرة الخامسة في هذه السورة الكريمة العظيمة بحقيقة الإيمان التي ينعتهم ربهم بها، إكراماً وتزكية، وبياناً لقدرها ومنزلتها. فيقول سبحانه وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيبدأهم بالنداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ لشد الانتباه، وإرعاء السمع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يا من آمنتم وصدقتم بالله ربكم وبرسولكم وبجميع ما جاءكم من الحق ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ابتعدوا وتَوَرَّعُوا عن أكثر الظن. فبدأ البيان بالحث على اجتناب التهمة للغير من غير دليل، فكانت التهمة لمجرد التوهم والشك. مما يتطلب التمحيص والفحص لكل ظن يظنه، والتثبت منه، وألا يلاحق غيره بدواعي الظن المشوب بالشك من غير دليل.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى نهى عن بعض الظن، وليس عن جميعه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ فهو الظن الذي لا مُوجب ولا سبب له. قال القرطبي رحمه الله تعالى: قال علماؤنا: فالظن هنا وفي الآية هو التهمة. ومحل التحذير والنهي إنما هو تُهَمَة لا سبب لها يوجبها، كمن يتهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً ممن لم يظهر عليه ما يقتضي ذلك[١] فناسب النهي الكثير مما يقع فيه الناس. بما يفيد أن لا تجعلوا الظن مساراً ومسلكاً وعمدة لأحكامكم في كل أمر وشأن من غير إخضاعه للتثبت والتأكد. وهذا التوجيه الكريم من رب العالمين يضبط سلوك وفكر المؤمن، وتوقيه من أن يرمي غيره بمجرد الوهم الذي لا حقيقة له.

وفي مقابل النهي من الظن يُظهر ما يجب من ظن المؤمنين في أنفسهم، وهو أن يظنوا بأنفسهم الخير، ليفيد أن الأصل في رؤية المؤمنين لبعضهم البعض هو رؤية الخير، واعتقاد الخير، وعدم التأويل على غير ذلك ابتداء، ما لم يظهر ضده بالقرائن الصحيحة. ففي هذا تعليم للمؤمن كيف يضبط شكوكه وأوهامه، بل لا يعبر عنها ولا يظهرها إلا وفق الحقائق. وهذه تربية سلوكية عميقة، بمعالجتها من داخل النفس، ومن ذاتية المؤمن نفسه. وفي هذا إبقاء السلامة، وسلامة الصدور والاعتقاد على الطهارة، وتحقيق التآلف والمحبة، وإزالة مسبباتها الظنية والنفسية. وفي ذلك ضبط للفكر من الشكوك والأوهام، وجعله يسير في مساره الصحيح. مما يبين مدى حاجة الإنسان للضبط الفكري، الذي يؤدي إلى الضبط السلوكي والأخلاقي. ويحفظ حقوق المؤمنين فيما بينهم. كما يبين ذلك مدى افتقار الإنسان لمنهج رب العالمين، ولرسالة النبي الأمين، محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى تعليل النهي عن بعض الظن ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ فهذا البعض الذي نهاكم الله تعالى عنه من الظن هو أوزار يتحملها الظان في غيره من المؤمنين، فيستوجب بذلك العقوبة التي يستحقها من الله تعالى. لأنه فعل ما نهى الله تعالى عنه، فأصبح فعله إثم يستوجب العقوبة.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى النهي عن خصلة خلقية ذميمة أخرى، يستوجب على المؤمنين تركها، وعدم العمل بها، فقال جَلَّ جلاله ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ ﴾ فلا تبحثوا عما هو مستور عنكم من عورات المؤمنين. والتجسس هو البحث عما خفي من عورات وعيوب الغير. فينهى تبارك وتعالى نهي تحريم عن تتبع مثالب الناس وعيوبهم وأخطاءهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والتجسس غالباً يطلق في الشر، ومنه الجاسوس. وأما التحسس فيكون غالباً في الخير[٢] والتحسس هو طلب الشيء من خلال التنقيب بالحواس في خُفْية وتستر، وهو فعل من الحس والإحساس، وهو لفظ يدل على المبالغة في البحث والتقصي بهدوء وروية. ومن

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢١٧/١٦)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٢٨/٤)

ذلك قول يعقوب عليه السلام لأبنائه، كما قال الله تعالى عنه ﴿ يَـٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ فالتحسس غالباً في الخير، والتجسس يكون بهدف الضبط والكشف لما هو مستور من أفعال الغير.

ومن مخاطر البحث عن مثالب الناس وعيوبهم، أنه يُشغل عقل وفكر الإنسان عن نفسه، ويُشغل وقته فيما لا خير له فيه، ثم يدعوه ذلك إلى التكلم في عيوب المؤمنين، ثم قد يبغضهم، وربما تكلم فيهم، وأشاع عنهم الباطل. فحرَّم اللهُ تعالى بكرمه وحكمته التجسس على المؤمنين. والنهي من الله تعالى يقتضي التحريم، والتحريم يفيد قوة عقاب من ارتكب المحرم. وفي هذا تربية للأمة بأن لا تشتغل بعيوب غيرها، بل ولا تبحث عنها، بل يجب سترها، لأن من ستر مسلماً ستره الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم (ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة)[١] مما يبين ويفيد أن منهج الإسلام قائم على ستر عورات وهفوات المؤمنين، وعلى مكارم الأخلاق، وإزالة رذائل ومساوئ الأخلاق، وأنه يربي المجتمع على إصلاح نياتهم، وسلوكهم، والارتفاع والارتقاء بأخلاقهم عن الدنايا. وأن يبنوا أحكامهم على الظاهر، ولا يفتشوا عن بواطن ما خفي عليهم من غيرهم. وأن تكون علاقاتهم مبنية على محاسن الأخلاق.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى النهي عن خصلة خلقية ذميمة أخرى، يستوجب على المؤمنين تركها، والبعد عنها. فقال جَلَّ جلاله ﴿ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا ﴾ فامتنعوا عن الغيبة بينكم، والتي هي: ذكرك أخاك بما يكره، كما قال صلى الله عليه وسلم عنها هي (ذكرك أخاك بما يكره) قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: (إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه. فقد بهته)[٢] مما يبين حُرمَة الغيبة. ووجوب كتم عيوب الناس من المؤمنين.

ثم من قوة جرمها أن شبهها سبحانه وتعالى بمن يأكل لحم أخيه. كما أورد عَزَّ وجل قبحها في صيغة سؤال استنكار وتفظيع لها. فقال عَزَّ وجل ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتًا فَكَرِهۡتُمُوهُ ﴾ هل يحب أحدكم أيها المؤمنون أن يأكل لحم أخيه وهو ميت، لا يشعر بمن يأكل لحمه. مع كرهكم لذلك؟ بل إن الطبيعة البشرية تنفر وتستكره وتستنكر ذلك. فالجواب حتماً هو: لا أحد يحب أن يأكل لحم أخيه حياً ولا ميتاً. وبالتالي فإن اغتيابه وهو غائب كمن أكل لحمه بعد وفاته، فشبه غيابه كوفاته. وفي ذلك بيان إلى أن عِرضهُ يمثل لحمه. فعرضه قطعة من جسده. وكما يحرم أكل لحمه فكذلك يحرم الاستطالة في عرضه بما يكره. فَصَوَّرَ

(١) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٢٦٩٩)

(٢) المرجع السابق، برقم (٢٥٨٩)

البيان حالة الغيبة بما تنفر منه النفوس، تقبيحاً لها، وتشنيعاً لمن سار بها. وفي هذا توبيخ ولوم شنيع لمن اقترفها، بما يستوجب تركها والإقلاع عنها، واحترام المؤمن لأخيه المؤمن.

فقد عالج المنهج القرآني العظيم جُرم الغيبة بتمثيلها في أدق تمثيل، بما يناسب حالها وفظاعتها، وما يحقق كرهها في النفوس. كما أوردها تبارك وتعالى بصيغة السؤال الاستنكاري، الذي يقرر حقيقة ما جُبلت عليه النفوس البشرية من كراهة أكل لحم الآدمي. فهي معالجة في أكمل وأدق الوصف، ومع لإظهار والبيان الذي يجعل المؤمن يكره أن يغتاب أخاه بما يكره من الوصف والنعت والقول. فالحمد لله تعالى على نعمة الإسلام، ونعمة بيان القرآن العظيم، وتجليته للأمور بأحسن ما يكون البيان. وهناك مسائل فقهية مرتبطة ومتعلقة بحق من ثبت فجوره، وهو معلن لها، ومباهي بها، وما يتعلق بالتحذير منه، أو الشهادة عليه. فقد تناولتها كتب الفقه، وكذلك تناولها القرطبي رحمه الله تعالى عند شرحه لهذه الآية الكريمة.

ثم يتوجه البيان مباشرة إلى ما يحقق في المؤمن ترك الغيبة، وترك جميع منكرات الأخلاق، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ خافوا ربكم، واجعلوا بينكم وبين عذابه عَزَّ وجل الوقاية النافعة، وذلك باجتناب ما نهاكم عنه. والتقوى هي: الشأن الذي يجمع بين الخوف والطمع. بين الخوف من معصية الله تعالى، وما يترتب عليه من العقاب، وبين الرغبة في مثوبة الله تعالى بطاعته ولزوم شرعه. فيتوقى ويتقي كل ما يخافه ويخشاه من غضب الله تعالى وعقابه عَزَّ وجل، ويسعى جاهداً لإرضاء الله تعالى، طمعاً في رضاه وما أعده من النعيم في الآخرة.

ثم يحث عَزَّ وجل المؤمنين إلى ما يعزز ذلك، فيقول جَلَّ شأنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن ربكم يتوب على من تاب، ويرحم من عاد إليه، بما يفيد توبوا مما كان منكم من الغيبة وغيرها، ولا تعودوا إليها حتى يتوب عليكم منها، ويغفر ما سلف من الذنوب، فإن ربكم ﴿تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن ربكم متصف بكثرة توبته على من تاب، ورحيم بالعباد. وقد أفاد السياق الكريم قوة التأكيد بأن الله تعالى هو التواب الرحيم لا غيره، وأنه هو المخصوص بذلك، فلا يشاركه فيه غيره. فبدأ البيان بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ لتؤكد ما بعدها من الإخبار والإعلام، ثم جاء لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ ثم المبالغة في التوبة والرحمة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو الذي يتوب على من تاب، ويكفر عنه ما كان منه. وأنه المتصف بالرحمة، والدال على كثرتها، والمبالغ فيها من غير تخصيص. فهذه التوبة منه سبحانه وتعالى هي من مفردات رحمته لجميع الخلائق منه سبحانه وتعالى. فنحمد الله تعالى على أنه تواب رحيم. ولولا ذلك لهلك العباد من كثرة ذنوبهم.

ثم بعد أن خص سبحانه وتعالى المؤمنين بتلك التوجيهات، ينتقل البيان الكريم إلى مخاطبة الناس أجمعين بما يحقق لهم الفوز والفلاح. فقال تبارك وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ يخاطب الله تبارك وتعالى الناس أجمعين إلى حقيقة ما يعرفون من أصل تدبيره عَزَّ وجل في الخلق. فيبدأهم بالنداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بالناس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ ليفيد النداء لجميع العباد من البشر. وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من التوجيه والبيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ثم ينتقل بهم إلى الحقيقة العظيمة، والدلالة الباهرة، وهي تتابع توالد خلق هذا الإنسان، فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم ﴾ فنحن خلقناكم لا غيرنا، فأسند الخلق إليه تبارك وتعالى إيقاظاً وتنبيها وتعليماً، وردهم إلى الحقائق التي لا ينكرها أحد من الخلق، فلا أحد يقول بأنه خلق نفسه، ولا أحد يقول بأنه مخلوق من غير خالق. والخلق يقتضي ويعني الإنشاء من العدم. ثم يعيدهم إلى أساس التكوين والخلق ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ فأصلكم أيها الناس ﴿ مِّن ذَكَرٍ ﴾ وهو آدم ﴿ وَأُنثَىٰ ﴾ وهي حواء. وبالتالي جاء تناسلكم كذلك من اجتماع الذكر والأنثى. وبما يعني لو شاء لجعل تعاقب خلقكم كما خلق آدم، ولو شاء لخلقكم كما خلق حواء، أو كما خلق عيسى عليه السلام. ففي ذلك كمال القدرة، وكمال التدبير والترتيب، وكمال الحكمة. مما يفيد لفت الانتباه إلى التفكر في هذا التدبير العظيم من تواصل النسل بهذا التقدير من الخلق والإنشاء والتعاقب. ليتبين لهم عظيم قدرته سبحانه وتعالى، والتي تستوجب طاعته، وتوحيده، وإفراده بالعبادة وفق ما جاء به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وفي إعادتهم إلى أصل الإنشاء والخلقة ما يثبت فيهم انتزاع خصلة التفاخر والبغي بينهم. فوحدة الأصل تُوجب إدراك التماثل، وأن الأصل فيكم هو المساواة، فلا فرق بينكم في التفاضل المبني على الجنس، من القبيلة والعشيرة، واللون، والطول، والقصر، والقوة والضعف.

ومن فوائد دلائل السياق أن قوله تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ ما يفيد قضاء الله تعالى بهذا الإنشاء والتكوين. والذي بدأه جَلَّ شأنه بضمير المتكلم ﴿ إِنَّا ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى، وقد نسب

عَزَّ وجل الإنشاء له عَزَّ وجل. وبضمير التفخيم والتبجيل والعظمة ﴿إِنَّا﴾ وكذلك تكرار الضمير في الفعل ﴿خَلَقْنَٰكُم﴾ وكذلك في الفعل ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ﴾ ليفيد تأكيد الفعل وإظهاره بالتعظيم والتفخيم والتبجيل له جَلَّ جلاله، وما يلزم له منكم إيها الناس من كمال التعظيم لربكم، وكمال الطاعة والاستجابة لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم. وفيه كذلك بيان كمال القوة والقدرة، وما يتبعها من القهر لكل من يعاند ويكابر، وأنهم مغلوبون على أمرهم وعنادهم، أفراداً وجماعات.

ثم ينتقل بهم إلى مفهوم مرحلة التدبير من الخلق، لإظهار الحكمة العظيمة من ذلك، فقال عَزَّ وجل ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ فبهذا الخلق والإنشاء جعلنا مكوناتكم بحسب الأنساب ﴿شُعُوبًا﴾ وهو العدد الكثير من الناس، وهو أعم من القبائل. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الشعوب أعم من القبائل، وبعد القبائل مراتب أخرى، كالفصائل والعشائر والأفخاذ[١] ثم خص البيان الكريم القبائل ﴿وَقَبَآئِلَ﴾ التي هي جزء من الشعب، وهي مفردات مكوناته. قال الزمخشري رحمه الله تعالى: والشعب الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة. فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل[٢] فما هذه الشعوب والقبائل إلا وهي من ذكر وأنثى، فتعود لآدم وحواء عليهم السلام، فواجبكم ألا يبغي أحد على أحد، بل تآلفوا وتعارفوا.

ثم انتقل السياق البياني الكريم إلى إظهار الغاية من كونكم شعوباً وقبائل، وهي ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ فالغاية بكونكم شعوباً وقبائل هو أن يحصل بينكم التعارف. فتتعرفون على بعضكم البعض من خلال مسميات قبائلكم وشعوبكم، وأنسابكم، وما يكون بينكم من الحقوق والواجبات، حتى تتقوى الصلة بقوة الثقة والمعرفة لكل واحد منكم بالآخر، ومعرفة كل قبيلة لنظائرها من القبائل الأخرى، حتى يتحقق التعارف بينكم، وليس أن الغاية هي التفاخر على شيء لم يكن لكم فيه اختيار. فأعاد تبارك وتعالى الناس إلى حقائقهم الأصلية، لإزالة ما ألبسوه على أنفسهم من المفاخر، وما أضافوه من المفاهيم الخاطئة التي ليس لها أصل في التكوين، فبنى عليها ما صنعه أهل الجهل من التفاخر.

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٣٢/٤)

(٢) الزمخشري، الكشاف (٣٧٣/٤)

ثم انتقل البيان الكريم بالْمُخَاطَبين إلى حقيقة التفاضل، فقال تبارك وتعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ إنما معيار التفاضل بينكم هو تحصيل التقوى، فكل أنواع التفاخر تذوب وتنصهر أمام التقوى. وهذا تعليل لقوة البديل عن الأنساب بمعيار التقوى، التي هي الامتثال لله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ فأرفعكم وأعلاكم منزلة عند ربكم تبارك وتعالى هو أكثركم خشية لربه سبحانه وتعالى. فتفاضلكم عند الله سبحانه وتعالى بمسار التقوى، ومدى تحققها فيكم، وليس التفاضل بالأنساب، لأن الجميع من ذكر وأنثى.

والتقوى هي: الشأن الذي يجمع بين الخوف والطمع. بين الخوف من معصية الله تعالى، وما يترتب عليه من العقاب، وبين الرغبة في مثوبة الله تعالى بطاعته ولزوم شرعه. فيتوقى ويتقي كل ما يخافه ويخشاه من غضب الله تعالى وعقابه عَزَّ وجل، ويسعى جاهداً لإرضاء الله تعالى، طمعاً في رضاه وما أعده من النعيم المقيم في الآخرة.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى ما يغرس في العباد التقوى، فيخبر جَلَّ في علاه عن صفتين من صفاته العظيمة، فيقول تبارك وتعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ إن ربكم ﴿عَلِيمٌ ﴾ أي: كثير العلم، ودقيق العلم، بما يعني ويفيد شمول وكمال العلم، بحيث لا تخفى على الله تعالى خافية. فلن يخفى عليه من أموركم شيء، مهما كان صغيراً. فإن أسررتم به، وأخفيتموه عن غيركم فلا يخفى على ربكم. ليتأكد بذلك عظيم علم الله تعالى في القلوب، فيحذروه في الغيب والشهادة. وكذلك من صفات ربكم أنه ﴿خَبِيرٌ ﴾ أي: عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فهو خبير بكل ما تعملون، فإنه عَزَّ وجل عليم به إلى أقصى ما يكون، فلا تخفى عليه خافية منكم أبداً. فربكم عليم بسرائركم وضمائركم.

ودلالة الخبير في قوله عَزَّ وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ تعني وتفيد: إحاطة علمه سبحانه وتعالى بظواهر الأشياء وبواطنها. وعالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فإنه يحصي عليكم دقائق أعمالكم، فلا يفوت منها شيء، من خير أو شر، وأنكم محاسبون ومجزيون على ذلك. ففي ذلك ترهيب من منكرات الأخلاق وعموم المعاصي، مهما خفيت أو صغرت. وفي نفس الوقت ترغيب للناس في طاعة ربهم، بعمل الصالحات مهما صغرت، فإنه تبارك وتعالى يعلمها ويجزيكم عليها.

وقد بدأ البيان الكريم بنون التوكيد ﴿إِنَّ ﴾ لتؤكد حقيقة ما بعدها من البيان الجليل ﴿إِنَّ اللَّهَ ﴾ ربكم ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ وقد أفادت دلالة ﴿خَبِيرٌ ﴾ تأكيد كمال العلم بالتفاصيل، وشمولية كمال العلم بالظاهر

والباطن، وبالتفاصيل الدقيقة. أي عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فإن الله تعالى يعلم كل شيء حتى دقائق ما يكون في الكون وما يكون من العبد، مما يَظْهَر ومما يغيب، كأعمال القلوب، والخواطر. فالخبير زيادة في العلم بالخفايا. فالخبير بالنسبة للعليم، مؤكدة لكمال العلم. فإنه سبحانه وتعالى عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة فشأنه يستلزم طاعته وامتثال أمره عَزَّ وجل.

فإذا علم وأيقن الإنسان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ جعله ذلك العلم العظيم ملتجئاً إلى الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة، لأنه مُوقن بأن الله تعالى يعلم أمره وشأنه، وأنه به عليم خبير، فيفوض أمره إلى الله تبارك وتعالى. كما يجعل منه هذا العلم استحضار مراقبة الله تعالى له في تصرفاته وأحواله، بأن الله تعالى يراه، فيدفعه ذلك إلى الاجتهاد في السير على الجادة، خوفاً من معاقبة الله تعالى له. وإن عمل صالحاً أيقن أن الله تعالى يعلمه، وسيجزيه أجر ما صنع من الخير، فلا يحتقر معروفاً يقوم به، ولا يستخف بمعصية يمكنه القيام بها. فإنه علم يربي في المؤمن الاستقامة، ويقوده للخير، ويمنعه عن الشر.

بل إنها قاعدة تربي المؤمن على الاستقامة، فإن منعته نفسه أو مانع عن فعل خير وهو قادر عليه، قال بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ وإن استهواه أمر حرام قال لنفسه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ وإن أراد غيره حراماً، ذكره بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ وإن أراد غيره الامتناع عن خير مقدور عليه، دفعه وحفزه بقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ فمن صاحب هذا العلم في حياته صاحبه الخير، وامتنع عن الشر والفساد، مما يبين نعمة القرآن العظيم في كل شأن من شؤون الإنسان. فالحمد والشكر لله العلي العظيم.

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾

ينتقل السياق الكريم إلى معالجة بعض المفاهيم الخاطئة عن دلالة وحقائق الإيمان التي توهمها بعض الأعراب. فقال تعالى ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي

﴿قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ الأعراب هم: من سكن البادية. وهو اسم جنس للبدو من العرب، وهم سكان البوادي، ومفردها أعرابي. وفي معاجم اللغة: الأعراب بالفتح، هم البدو من العرب. الواحد أعرابي. ممن نزل البادية. وأما من نزل الأرياف واستوطن المدن والقرى العربية فهم عرب(١) وقيل: هو الجاهل من العرب(٢) فالأعراب اسم جنس لبادية أو بدو العرب، الذين استوطنوا الصحاري، ويتتبعون المراعي. فهم البادية من العرب، الذين ابتعدوا عن المدن التي فيها التعليم والحضارة، فغلب الجهل عليهم.

فيقول الله تعالى عن هؤلاء الأعراب ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ﴾ أي: قالت جماعة وطائفة منهم للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ءَامَنَّا﴾ أي: أصبحنا مؤمنين من أهل الإيمان. فيرد الله تعالى عليهم بتوجيه الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم عن حقيقة الإيمان، بأن الإيمان ليس هو الذي تعتقدون، بل نفى عنهم الإيمان، فقال عَزَّ وجل ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ لم يتحقق الإيمان فيكم، الذي هو التصديق بالقلب، مع القول باللسان، ويصدقه العمل ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ ولكن قولوا بأننا من المسلمين، نطقاً بالإسلام. والمستسلمين والمنقادين لكم بالعمل الظاهر لِمَا تَدْعُونَا إليه ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ ولا زال الإيمان خارج قلوبكم.

قال أهل التفسير: لأن القوم صَدَّقُوا بألسنتهم، ولم يصدقوا قولهم بفعلهم. فقيل لهم: قولوا أسلمنا. لأن الإسلام قول. والإيمان قول وعمل(٣) مما يبين أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والذي يفصح عنه اللسان ويؤكده العمل بالاتباع والامتثال والطاعة. فمن أظهر مظاهر الإسلام دون أن يتحلى القلب بالتصديق فإنه ليس بمؤمن. فإن محط ومرتكز الإيمان هو القلب، ولا يعلم القلوب وسرائرها إلا الله سبحانه وتعالى. ولذلك ورد البيان من الله تعالى عن حقائقهم القلبية. لِيُعَلّمهم ويُعَلِّم غيرَهم حقيقة الإيمان. فالإسلام هو الدخول في السلم بالانقياد الظاهر. بينما الإيمان أخص من الإسلام، والإسلام أعم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الإيمان أخص من الإسلام، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة(٤) قال قتادة رحمه الله تعالى: لم تَعمّ هذه الآية الأعراب، فإن من

---

(١) الفيومي، كتاب المصباح المنير (٢/٥٤٧)

(٢) الجرجاني، كتاب التعريفات، ص (٣١)

(٣) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٣٨٩)

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢٣٤)

الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله، ولكنها في طوائف من الأعراب[١] مما يفيد ويبين أهمية معرفة الفرق بين الإسلام والإيمان، وأهمية معالجة القلوب، وأن لا تُقاس الناس على المظاهر. وأن على المسلم أن يجعل انطلاق مظهره من داخل قلبه. ولا يجعل مظهره هو المعبر دون القلب. فيتمظهر بمظهر الإسلام، دون معالجة القلوب. اللهم ارزقنا إيماناً صادقاً وقلباً خاشعاً يا رب العالمين.

ثم يوجههم ويرشدهم سبحانه وتعالى إلى المعالجة الصحيحة، التي يتحقق بها الخير لهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ فإن أخلصتم الإيمان والعمل كما أمركم ربكم عَزَّ وجل به، فإن الله تعالى يتقبل منكم أعمالكم، قال القرطبي رحمه الله تعالى: إن تخلصوا الإيمان ﴿ لَا يَلِتۡكُم ﴾ أي: لا ينقصكم ﴿ مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا ﴾[٢] فإن أخلصتم إيمانكم والعمل كما أمركم ربكم ورسوله صلى الله عليه وسلم به، وأنكم أتيتم طائعين ومنقادين لربكم حقيقة من قلوبكم، فإن الله تعالى يتقبل منكم أعمالكم، فيكون الإيمان عن حقيقة صدق القلب واليقين. مما يبين أهمية الإيمان ومنزلته العظيمة. وأنه أساس وركيزة قبول العمل.

كما يبين هذا التوجيه من الله تعالى عظيم علمه عَزَّ وجل بمكنون القلوب، وأنه لا تخفى عليه خافية من قلوب العباد، وما تكنه ضمائرهم وسرائرهم. وفي هذا البيان من الله تعالى معالجة لواقع الحال لهم، وكذلك بيان وتعليم لكل من أراد حقيقة الإسلام بأن مرتكزه الأول الإيمان، وهو التصديق القلبي الكامل بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبجميع ما ورد عنه، مع التطبيق العملي لمنهج الله تعالى.

ثم بعد أن أعلمهم سبحانه وتعالى بحقائق الإيمان يحفزهم إلى صدق الإيمان والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم، بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ فإن الله تعالى كثير المغفرة، وواسع الرحمة بعباده. وفي هذا زيادة من الترغيب لهم في تصحيح أحوالهم، والانتقال بأنفسهم إلى الإيمان. مما يبين حكمة الله تعالى في معالجة قضايا العباد، وأنه رحيم ودود، يشجع ويدفع العباد إلى تصحيح الأخطاء، وأنها ليست حاجزاً، ولا عائقاً عن المغفرة والرحمة من لدنه تبارك وتعالى. فإن ربكم يصفح عن الأخطاء والزلات لمن استغفر وتاب، وعاد للحق، وأنه يكرم عباده على طاعتهم بمغفرته لهم. فإنه منهج رباني عظيم، ليصنع مجتمعاً يتنعم ويتمتع بنعمة الانقياد والصدق، والتآخي، والتفاعل مع الإصلاح والبناء الذاتي، وفي جميع أوجه الخير، ويشد بعضه بعضاً.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢١/٣٩١)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/٢٢٧)

ثم يزداد البيان من الله تعالى عن حقيقة الإيمان، فيقول تبارك وتعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ إن المؤمنين حقيقة هم من جمعوا بين التصديق بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ ولم يُداخلهم الشك والريبة في ذلك، وجمعوا مع ذلك الجهاد في سبيله سبحانه وتعالى ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وجاهدوا بما يملكون من المال والأنفس ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ فهؤلاء هم الذين صَدَّقُوا إيمانهم بأفعالهم. فالإيمان القلبي يُظهره التطبيق العملي، بالإنفاق مما يملك المؤمن من المال، وأيضاً الجهاد بالنفس في سبيله سبحانه وتعالى. مما يستوجب أن عليكم إظهار حقيقة إيمانكم بما بينه وأوضحه لكم ربكم سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان أن دلالة معنى ﴿وَجَٰهَدُواْ ﴾ تعطي معنى مقاومة النفس على ما تتمنع منه، وهو دفع المال، الذي هو أنْفَس الممتلكات، فسماه الله تعالى جهاداً ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ فدفع المال معبر عن صدق وحقيقة الإيمان، وذلك لمحبة الإنسان في اكتناز الأموال. وكذلك فإن المعيار الآخر هو بذل النفس ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ فالنفس غالية عند صاحبها. ولكن في بذلها لله تعالى ما يظهر حقيقة إيمانها، وصدقها. وأيضاً ضبط البيان ذلك البذل للمال والنفس، بأنه ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وليس للرياء، ولا للسمعة، ولا لأي غرض وسبب غير ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فهو محصور في سبيل الله تعالى. والله عَزَّ وجل مُطَّلِع على القلوب، فيعرف دواعي ذلك البذل، إن كان له تبارك وتعالى أو لأهداف ومراد آخر. وقد قدم البيان الكريم المال لإفادة التدرج من الأدنى إلى الأعلى، وكذلك لحرص الإنسان على المال، حتى أنه ليبذل قصار جهده ووقته وصحته وعمره من أجل تحصيله وكنزه.

وكذلك من دقائق البيان أن استفتح الله تعالى الآية بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا ﴾ التي تفيد حصر حقيقة الإيمان وصدقه في اليقين والتصديق بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وانتفاء الشك والريبة، وكذلك الجهاد بالمال والنفس في سبيله سبحانه وتعالى. فمن انتفت منه هذا المتطلبات انتفى منه حقيقة الإيمان. مما يبين أن الإيمان تصديق بالقلب وعمل بالجوارح. وأن المؤمن يتغلب على نفسه في كل شيء متعلق بطاعة ربه جَلَّ جلاله. كما يدل ذلك على فضل ومنزلة أولئك المؤمنين الذين جاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأموالهم وأنفسهم. وأنهم صادقون في إيمانهم، بما كان منهم، وبتصديق الله تعالى لهم.

كما ورد نعتهم ووصفهم بالصدق من خلال الاستهلال باسم الإشارة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ لإفادة الإشادة والتفخيم لهم، ثم قصر الصدق في الإيمان عليهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ وليس غيرهم ممن تخلى وتوارى عن ذلك. بل أفاد البيان قصر الصدق عليهم في إيمانهم بذلك الجهاد. مما يبين دقة البيان القرآني، وبلاغة إعجازه، وعظيم شرحه وبيانه لحقائق النفوس.

ثم يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله للأعراب الذين قالوا بما أخبر عَزَّ وجل عنهم ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾ فيرد عليهم تبارك وتعالى بما أمر به رسوله عليه الصلاة والسلام أن يقوله لهم. فقال عَزَّ وجل ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ قل لهم أيها الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أتخبرون ربكم بحقيقة دينكم؟ سؤال يفيد الاستنكار من أن تخبروا ربكم سبحانه وتعالى بما هو به عليم. فإن الله تعالى هو العالم بما في الضمائر وما تخفيه الصدور، بل إنه سبحانه وتعالى يعلم جميع ما في الكون ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وربكم من كمال علمه أنه يعلم كل شيء مما في السماوات والأرض، فلا يغيب عنه شيء عَزَّ وجل مع سعة السماوات والأرض وكثرة ما فيها. فكيف لا يعلم بما في قلوبكم من الحقائق التي لا تخفى عليه سبحانه وتعالى. فلا يحتاج ربكم جَلَّ في علاه أن تخبروه عن أنفسكم، وهو أعلم بحقائق العباد. وقد بين لكم خطأ فهمكم للإيمان الذي لا يكشفه غيره سبحانه وتعالى. فأخبركم بما في قلوبكم التي لم توافق قولكم. بل إن ربكم سبحانه وتعالى ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فإن الله قد أحاط علمه بكل شيء، ومن ذلك ما بينه لكم عما في نفوسكم من الإسلام، وما يجب عليكم لتحقيق الإيمان.

وقد استفتح البيان عن كمال علمه جَلَّ شأنه بلفظ الجلالة ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ فهو وحده ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ليعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة التي لا تنقطع ولا تتوقف، لا سابقاً ولا لاحقاً. فدلالة ﴿ عَلِيمٌ ﴾ تفيد المبالغة في العلم كما أن جملة ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ تعطي دلالة كمال المبالغة التي تعني استيفاء جميع دلالة العلم وشموليته. فإني أعلم كل شيء، حتى ما يضمره العباد في قلوبهم، وما هم عليه من أمر وشأن. مما يفيد الرقابة الربانية للعباد أجمعين، كما أنها وردت على سبيل التخصيص ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي: حصر هذه الصفة الكريمة له وحده لا شريك له. وفي التخصيص زيادة تنبيه بكمال علمه جَلَّ جلاله، فراقبوه، واتقوه. كما أن فيها عناية وتطمين للمؤمنين بأنه يعلم حقيقة ما هم عليه من صدق الإيمان. مع إظهار كمال القدرة

والرعاية الكريمة بعلمه وإحاطته عَزَّ وجل. وقد ورد بيان ذلك بالصيغة الكلية لكل شيء، بما يفيد أعلم ما تعملون جميعاً أيها الْمُخَاطَبُون، وما يكون لكم من غيركم، وما يكون منكم، وما يكون لغيركم منكم. فكونوا في طمأنينة من ثوابكم، وأخلصوا لربكم تبارك وتعالى، فإنه بكم عليم.

ثم يزداد الكشف لحقائقهم، والتنبيه عليها، بما يهذب السلوك، ويصحح المفاهيم، ويعلمهم أدب الإسلام وأخلاقه. فيقول تبارك وتعالى عن أولئك الأعراب ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ إن هؤلاء الأعراب يذكرون لك امتنانهم عليك بأن أسلموا معك، لمناصرتك، وطاعتك، فيعتبرون أنفسهم أهل فضل عليك بإسلامهم. والمن والامتنان هو تعداد الأفضال من النصرة والمشاركة. وبعد أن حرر تبارك وتعالى الخطأ الذي كان منهم، يعالجه لهم تبارك وتعالى بالتصحيح والتصويب، فيقول عَزَّ وجل ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ﴾ لا تمننون عليَّ بإسلامكم، فترون أن الفضل لكم ومنكم على رسولكم. فإنها مفاهيم خاطئة، فإن الصواب أيها القوم هو ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ بل إن المنة والفضل لله ربكم تبارك وتعالى، بأن هداكم للإيمان. أي: إن كنتم صادقين في إيمانكم فإن المنة لله تعالى عليكم بأن وفقكم وهداكم للإيمان، فأنسبوا فضل إسلامكم واعزوه لربكم الذي هداكم ووفقكم للإسلام إن كنتم صادقين في إيمانكم. وفي هذا تصحيح للاعتقاد الباطل بأحسن الأساليب الربانية، التي تكشف للعباد خطأ الحسبان والتصورات عن النفس، وما يجب أن يكونوا عليه من الحق والمعرفة. وذلك بأسلوب غاية في الحكمة والرفق. فالحمد لله تعالى على كريم بيانه عَزَّ وجل.

ثم يختم الله تبارك وتعالى سورة الحجرات بما يناسب موضوعها ومعالجتها الأخلاقية، فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ إن الله ربكم يعلم كل ما يغيب في السماوات والأرض، فلا تدركه الحواس والمخاليق، ولكن الله تعالى يعلمه كما هو.

وقد استهل السياق بحرف التوكيد ﴿ إِنَّ ﴾ لتوكيد ما بعده من بيان. ثم أورد العلم بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ يَعْلَمُ ﴾ بما يفيد علمه عَزَّ وجل المستمر الذي لا يتوقف ولا ينقطع، لا سابقاً ولا حاضراً ولا لاحقاً، فهو علم وإحاطة بكل ما في الكون، مما تعلمون، ومما لا تعلمون. بل أفادت دلالة ﴿ غَيْبَ ﴾ ما غاب عنكم وعن غيركم، وما غاب قبل كونه، وما يكون من غيابه بعد ظهوره. فهو يعلم ما سيكون منكم ومن غيركم قبل أن يكون، حال هو في علم الغيب. ويعلم به حين وجوده، ويعلم به حين غيابه وتلاشيه، كعلمه عَزَّ

وجل بالنوايا وتغيرها، وعلمه بالسحب قبل أن يأتي بها، وحين يأتي بها، وحين تغيب، وكالروح حين تخرج، وكالرياح حين تغدو وحين تغيب.

ثم ينتقل البيان بالمخاطَبين إلى علمه سبحانه وتعالى بأعمالهم على وجه الخصوص، والذي مفاده إحصاء أعمالهم، من خير أو شر، فيقول تبارك وتعالى ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فربكم عليم بأعمالكم التي تعملونها، فيحصيها لكم، ويوفيكم إياها، فلا تُبخَسُون من ثوابها شيئاً. فهو بصير بكم، وبما يكون منكم، فلا يخفى عليه منكم شيء. فيثبت معيته عَزَّ وجل لهم، وكمال علمه بجميع أعمالهم.

وقد تضمن قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تخصيصهم بالرغم من شمولية غيرهم، وذلك لإفادة مزيد العناية والتطمين، وإظهار الامتنان مع كمال القدرة والرعاية. فربكم بصير بأعمالكم وأقوالكم، وبالتالي مراقب لِمَا يكون منكم. فلا يخفى عن علمه شيء مما يكون منكم. وقد ورد البيان الرقابي بدقة عالية، إذ بدأها سبحانه وتعالى بلفظ الجلالة ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فهو علم خاص لله تعالى، وليس لغيره فيه حظ ولا نصيب، وهو علم من غير انقطاع، ليعطي بذلك معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة له عَزَّ وجل، والتي لا تنقطع، لا سابقاً ولا لاحقاً. فإني أراكم وأسمعكم، وأعلم ما أنتم فيه من أمر. مما يفيد الرقابة الربانية لكم، وورد العلم بالعمل بصيغة الجمع ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بمعنى أعلم ما تعملون جميعاً أيها الْمُخَاطَبُون، وليس بعضكم عن بعض، وليس شيئاً مما تعملون دون شيء، بل إحاطة كاملة شاملة. فسبحان الله العلي العظيم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الحجرات. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.